التّقنيات العلمية في البحث التّاريخي (07)

سادساً- الببليوغرافيا

1. التّعريف بها، وبدايات الظهور والتطوّر

الببليوغرافيا كلمة يونانية الأصل، كانت تدلّ على نسخ المخطوطات أو الكتب عامّة، ثمّ صارت تدلّ على حصر الكتب ووصفها، ووضع قوائم لها. ومن أسمائها "المرجعية" أو "البحث المرجعي". وهو يعني "إعداد سجلّ علمي للإنتاج الفكري المكتوب، سواء كان مخطوطاً أو مطبوعاً.

وقد عُنِيَ الأوّلون بها عناية مُلفتة؛ وآية ذلك ما قام به الشّاعر اليوناني "كاليماخوس" (Callimcus)، حين كان قيِّماً على مكتبة الإسكندرية الشّهيرة أواسط القرن الثالث للميلاد. لكنّ هذه الإرهاصات ستعرفُ تطوّراً ملحوظاً كمّاً وكيْفاً، وذلك في عصور ما بعد الطِّباعة، بعدما شاعت الكتب شيوعاً كبيراً. ما جعل الحاجة للبليوغرافيا مُلِحّةً، بوصفها علماً يصف الكتب ويجمعها في قوائم معيّنة.

وليس خافياً على أحد، ما الفائدة التي يمكن للباحث أن يجنيها من هذا الجهد المعرفيّ المتميّز. فالببليوغرافيا، بذلك، "وسيلة علميّة ضرورية للوقوف والتّعرّف والتّحكّم نسبياً في الإنتاج العلميّ، وهي قاسم مشتركٌ في كلّ الدِّراسات".

ومن أسماء الببليوغرافيا لدى العرب: الفهرس، الكلمة الفارسية المُعرّبة. وقد "دلّت على قوائم كتب مكتبة أو خزانة، كفهرسة بيت الحكمة في بغداد، وفهرسة مكتبة الحكم المستنصر في قرطبة". ومثال ذلك ما نجده أيضاً عند ابن النّديم في فهرسته، وابن خير الإشبيلي في فهرسته. فضلاً عن إرشاد القاصد إلى أسنى

المقاصد لابن إبراهيم الأكفاني، ومفتاح السّعادة ومصباح السّيادة لطاش كُبْرِي زاده، وكشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة إلخ..

2. مصادر الببليوغرافيا

ينشد الباحث، أيّ باحث، في مسعاه العلميّ، جمعَ شتات من المعلومات ممّا يراهُ مستوفياً لحاجته البحثيّة، فلا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ما لم يَسْهُ، أو يغفل. لذلك، هو مُطالبٌ بالرّجوع إلى مصادر بياناته التي تُكوِّن، في جملتها، قائمته الببليوغرافية التي تُشكِّلها الأوعية الآتية:

أ. فهارس الخزائن والمكتبات العامّة

ب. الفهارس المطبوعة الخاصّة بالمصادر المطبوعة أو المخطوطة

ت. كتب الطّبقات والوفيات

ث. معاجم المُؤلِّفين

1. أنواع الببليوغرافيا

يمكن، في العموم، تقسيم الببليوغرافيا إلى الآتي:

- **ببليوغرافيا نسقية**

وتسعى "لإعداد القوائم وحصر النِّتاج الفكري وضبطه". ومن الأنواع التي تنضوي تحتها:

- الببليوغرافيا العامّة، العالميّة منها والقوميّة والإقليميّة.
- الببليوغرافيا الخاصّة، وتُعْنَى بموضوع مُعيّن في زمان ومكان محدّديْن.
- الببليوغرافيا التّحليلية، وتركِّز على الجانب المادّيّ الملموس للكتاب، فتصفه وصفا دقيقاً، يشمل مكوِّناته، مثل غلافه وتجليده، وخطّه والحبر الذي كُتِب

به، وورقه الذي خُطّ عليه. كما تُعنى هذه الببليوغرافيا بموازنة نسخة بنسخ أخرى، إذا تعلّق الأمرُ بمخطوط، وطبعاته إذا كان مطبوعاً.

وثمّة تقسيم آخر لأنواع الببليوغرافيا يعكس طريقة إعدادها، بحيثُ يمثِّلُ كلّ نوع مرحلةً من مراحل الإعداد الببليوغرافي:

أَ. ببليوغرافيا سردية، وتُعنَى بسرد المؤلّفات الخاصّة بالدِّراسة، وفق ترتيب معيّن. وذلك بذكر معلومات، منها: عنوان الكتاب، ومؤلِّفُه، ودار نشره، وطبعته، تاريخ ذلك، وذكر المحقق، أو المترجم (إن وُجِد)، وكذلك عدد الأجزاء.

بَ. ببليوغرافيا وصفية، وتحتصّ بوصف الكتاب شكلا ومضمونا، وذلك من حيث تركيز الاهتمام على أبوابه وفصوله.

تَ. ببليوغرافيا تحليلية (موضوعية)، وتختصّ يالجانب المادّيّ للكتاب. لذلك، فإنّها تتعمّقُ في مضامينه، محاولة تلخيص ما جاء في كلّ باب، أو فصل من فصوله بشكل مُركّز

ثَ. ببليوغرافيا نقدية تقويمية، وهي التي "تقدِّم تقويماً إجماليا للكتاب، بذكر مزاياه ونقائصه"، شكلا ومحتوًى.

ومن المُفيد التّذكير، أخيراً، أنّ أسس الترتيب في العمل الببليوغرافي، تقوم إمّا على أساس موضوعي تصنيفي، أو على أساس زماني (زمن النشر، أو موت المؤلف)، أو على أساس هجائي.